مع هيكل في أيام يوليو: الملك المقامر والضابط الثائر

فرانسوا باسيلي*

■ تقدم لنا حلقات «أيام يوليو» للأستاذ محمد حسنين هيكل بفضائية الجزيرة قطعة حية تنبض بإحدى أهم فترات التاريخ المصري ـ والعربي ـ المعاصر، فترة قيام الضباط الأحرار بـ«الحركة المباركة» كما سميت والتي عرفت فيما بعد بثورة يوليو أو الثورة المصرية، ولا شك أن فضائية «الجزيرة» قد أحرزت بهذا التسجيل المثير غير المسبوق لأدق أسرار الثورة المصرية من واقع وثائق وجرائد تنطق بما حدث ومعاينات لشخصيات رحل بعضها وما زال بعضها حياً يرزق قد احرزت سبقاً إعلامياً وتاريخياً هائلاً بعد أكثر من نصف قرن من أحداث تموز (يوليو) المثيرة.

إنني كمثقف مصري عربي الثقافة والتاريخ أجد نفسي أجلس مسمراً مشدوداً كل أسبوع لأتابع أستاذنا هيكل يزيل أمام أعيننا الستائر ويحلل الأحداث ويقدم وثائق الوقائع فإذا بالتاريخ ينفض عن جسده غبار السنوات وينتفض قائماً ليسير ويتحرك ويتكلم ويتألم ويبكي ويندهش وينفعل أمامنا كأنه يحدث في التو واللحظة. وذلك بفضل الأسلوب التلقائي الحميم الذي اتبعه هيكل في تقديم الحدث والذي وظف فيه ثلاثة مصادر أساسية، هي الجرائد اليومية الرئيسية الثلاثة التي كانت تصدر في مصر وقتها وهي «الأهرام» و«الأخبار» و«المصري» ثم الوثائق الرسمية البريطانية والأمريكية والمصرية سواء كانت برقيات أو مراسلات أو وقائع جلسات أو أوراق رسمية أو مذكرات، ثم يمنح هذا كله حيوية إنسانية حميمة حين يضخ فيها وحولها كلها مشاهداته وذكرياته وتجربته الشخصية سواء في معايشته لهذه الأحداث في وقتها ساعة بساعة بل دقيقة بدقيقة ـ يقول لنا مثلاً انه وصل إلى منزل اللواء محمد نجيب في الساعة كذا مساء يوم كذا، ثم يستدرك مباشرة قائلاً: لأ الساعة كانت كذا إلا عشر دقائق!! أو في إدراكه للاحداث التي لم يعايشها عن طريق الاستفسار عنها من شخصيات يقابلها بعد ذلك وكانت معايشة لها. والمثال المدهش لذلك هو ما رواه مؤخراً من أنه عندما قابل زعيم الوفد فؤاد سراج الدين باشا في السجن حينما سجنهما السادات مع حوالي خمسمائة من الكتاب ورجال السياسة ورجال الدين قبل شهر واحد من اغتياله استفسر عن احداث بدت غامضة له قبل وبعد قيام ثورة تموز (يوليو) مباشرة.. أي قبل حوالي ثلاثين عاماً من وقت المقابلة في السجن. فالرجل إذن هو موسوعة معلومات تاريخية سياسية وثقافية متنقلة ودائمة التجدد تبحث في كل لحظة عما تستكمل به ما نقص من معلومات وتفسيرات في صفحاتها الهائلة الضخامة.

والذي يمنح كل هذا قدراً فريداً من الأهمية مقارنة بأية كتب أو مقالات أو مقابلات تليفزيونية أخرى هو عدد من الخصائص التي ينفرد بها هيكل عن بقية الكتاب والمحللين والصحافيين والسياسيين العرب بحيث يمكن أن نقول انه نسيج وحده لا يشبه ولا يشبهه صحافي أو مثقف عربي آخر في نصف القرن الأخير.. هذه الخصائص هي:

ذاكرة فوتوغرافية

لا شك أن قدرة الأستاذ هيكل على تذكر الأحداث بتفاصيلها الدقيقة بالتاريخ والساعة والموقع هي قدرة مدهشة حقاً فهو يتذكر مثلاً ماذا كان يرتدي اللواء محمد نجيب عندما زاره هيكل في بيته ليلة الثورة، وماذا قال له، ومن كلمه تليفونياً وكم مرة، ثم نوع السيارة التي استقلها محمد نجيب متحركاً نحو مكان لقاء الضباط الأحرار. وفي أي شارع كان اللقاء في محطة بنزين هي الآن الموقع الفلاني، وهذه كلها أحداث وقعت منذ أكثر من نصف قرن! هذه القدرة الفائقة على اختزان التفاصيل عن الشخصيات والأماكن ودقائق حدوثها تمنح شهادته مصداقية كبيرة وتمنحنا نحن فرصة نادرة لمشاهدة الحدث عن قرب شديد وبصورة مجسمة أقرب ما تكون من المعايشة الحقيقية له.

غريزة صحافية:

يملك الأستاذ هيكل غريزة صحافية مرهفة فهو شديد الفضول ليس لمعرفة ما يحدث فقط ولكن الأهم معرفة لماذا يحدث فتفسير الأحداث هو همه الدائم وهاجسه الوجودي الأساسي، وتمكنه غريزته الصحافية المرهفة هذه من اشتمام الأحداث قبل وقوعها والتحرك للتواجد في الأماكن التي ستقع بها. فتدفعه غريزته الصحافية الى زيارة محمد نجيب في بيته ليلة تحرك الضباط الأحرار في الساعة التي كان فيها نجيب ينتظر أن يبلغه الضباط بأنه قد تم لهم الاستيلاء على مركز قيادة الجيش لكي يذهب إليهم، وهكذا نجد هذا الصحافي الشاب يتواجد في اللحظة والمكان الذي يتواجد به من سيصبح بعد يوم أو أكثر بقليل القائد المعلن للحركة المباركة، ثم يصبح أول رئيس لجمهورية مصر في التاريخ.

ثقافة موسوعية

قليل هم الكتاب الذين يتحدثون إليك في السياسة بنفس المقدرة والحماس والحساسية التي يتحدثون بها في الثقافة، وفي التاريخ وفي الجغرافيا وفي الشعر والأدب والرواية والمسرح، وقليلون من يمكنهم التنقل بين هذه كلها بخفة ورشاقة كما يفعل هيكل، الذي يفاجئنا في وسط حديثه السياسي بأبيات من الشعر العربي يحفظها عن ظهر قلب، أو بوصف لمسرحية لبرنارد شو، أو بكلمة مأثورة قالها تشرشل أو ديغول أو بمقال كتبه كاتب مصري أو مفكر عربي، أو بإشارة إلى رواية لنجيب محفوظ، أو حوار مع توفيق الحكيم. وتقوم هذه الثقافة الموسوعية بتعميق فهم هيكل للحدث السياسي ولدوافعه الإنسانية وهو همه الأول.

شخصية جذابة

تمنحنا أحاديث هيكل بأسلوبها الحالي فرصة الاقتراب منه بشكل إنساني حميم لأنه يتحدث بشكل مطول بتلقائية لا بد أن تظهر من خلالها ملامح خصاله الشخصية، وقد لفت نظري في هيكل شيء لا تجده بكثرة في المشاهير في العالم العربي وهو أدبه الجمّ. فالرجل الذي حقق مكانة فريدة بين الكتاب والصحافيين والسياسيين العرب هي بالتأكيد مكانة عالمية وعلى أعلى المستويات أي على مستوى المعرفة الشخصية والصداقة لعدد كبير من زعماء العالم في المجالات السياسية والعسكرية والصحافية والفكرية، هذا الرجل تجده لا يتحدث عن أشخاص آخرين إلا بأدب ولياقة واحترام تثير الدهشة حقاً فهو يذكر رئيسه في العمل في جريدة «الإجيبشيان جازيت» في مطلع شبابه بالكثير من الاحترام وكأن الرجل ماثلاً أمامه، وكأنه شخصياً لم يتجاوز بتاريخه وإنجازاته الشاهقة إنجازات ومكانة رئيسه هذا الذي لا يعرفه أحد اليوم. وتلاحظ أنه كثيراً ما يذكر اسماء الشخصيات المصرية التي يتحدث عنها بألقابها مثل باشا وبك، أو الأستاذ، وتلاحظ أن لديه حرجاً شديداً عندما يضطر إلى الحديث عن بعض الأحداث المشينة لأصحابها فتجده يكاد يعتذر لهم وعنهم، هذا بينما تعج الفضائيات ببرامج يتحدث فيها من هم أقل موهبة ومكانة وإنجازات من هيكل بعشرات المرات بشكل ملئ بالاستهتار بالآخرين والتجريح لهم والبذاءة في حقهم.

هذا الأدب الشخصي، بالإضافة إلى جاذبية إنسانية حميمة تنضح بها كلمات وملامح وأفكار هيكل، وتشف عنها مشاعره المتجلية، هي كلها مجتمعة ما منحت هذا الرجل تلك القدرة الفذة على مصادقة ومقابلة هذا العدد الهائل من زعماء وقادة العالم فهؤلاء لا يجلسون مع أي إنسان. ولا بد أنهم رأوا في هيكل شخصية محببة تعطي قدر ما تأخذ وتفيد بقدر ما تستفيد وتحتفظ للصداقة بحقها وللأخلاق بمكانتها وللأدب والدماثة بدورهما وللاحترام بضروراته ففتحوا له أبواب قصورهم ومكاتبهم وقلوبهم، مما مكنه في النهاية أن ينقل لنا أعمق ما في دخيلة هؤلاء القادة بأسلوب بالغ الجمال والصدق والقدرة على التوصيل والتواصل.

مع الأدب والدماثة لا بد أن نلاحظ التواضع الجميل في شخصية هيكل، قارن مثلاً أسلوب حديثه المؤنس المبسط المنساب بلا انفعال ولا غطرسة فارغة ولا دوران حول الذات بأسلوب رجل الثورة الراحل حسين الشافعي الذي شاهدناه في نفس الفترة يتحدث مطولاً في برنامج «شاهد على العصر» في نفس فضائية الجزيرة، دون إقلال بمكانة ودور حسين الشافعي بالطبع، فهنا أقارن فقط بين أسلوب هيكل المتواضع الجذاب الإنساني المتعاطف وبين أسلوب معظم الذين يظهرون في البرامج من المشاهير الذين لا تجد في معظمهم سوى مجموعة من أمراض الغطرسة والتعالي وعدم احترام الآخرين، ومع هذا كله لا يقولون شيئاً له قيمة لنا نحن المشاهدين.

الملك المقامر

استطاع هيكل أن يرسم لنا صورة إنسانية مأساوية للملك فاروق بقدر كبير من الموضوعية والتعاطف مع عدم الإخلال بأولوية الحقيقة التاريخية..

وكنت وأنا أستمع بنهم إلى هيكل يروي مأساة الملك فاروق أعود في كل مرة مع الذاكرة إلى طفولتي المبكرة التي يحتل فيها الملك فاروق مكاناً لم أكن اتصور أن يكون موجوداً بها. فقد كانت عائلتنا تذهب كلها لقضاء الصيف في أبو قير حيث يملك جدي.. والد أمي كابينة خشبية من دورين بناها بنفسه هناك، وما تزال في ذاكرة طفولتي تقبع هذه المشاعر التي كنت أحسها كلما ركبنا القطار من أبو قير، وهي مصيف هادئ صغير وقتها يبعد أقل من ساعة عن الاسكندرية ـ فيمر بنا القطار على أول محطة وهي المعمورة، وكانت وقتها مزارع للنخيل على شاطئ البحر، ثم يمر بعدها مباشرة على محطة المنتزه، وهي محطة قصر الملك فاروق، وكانت المحطة تختلف عن محطة أبو قير في أنها كلها أرضاً وأبنية من الطوب الأحمر الفاتح دقيق الصنع بالغ الأناقة. وكان القطار عادة يبطئ وهو يعبر محطة المنتزة هذه بطئاً شديداً ـ ربما حتى لا يزعج الملك أو حاشيته بالداخل ولو من بعيد بأقل ضوضاء، وبهذا كنت أستطيع التأمل في السور الشاهق بالغ الفخامة للقصر الملكي، كما أرى مبنى مجاوراً للمحطة كان يقبع بداخله «ديزل» خاص بالملك إذا ما خطر له أن يركب القطار، أو ربما لنقل أمتعته الملكية. وكان قطارنا الشعبي يمر من أمام الباب الحديدي المذهب الكبير لحديقة القصر فنلمح بداخله حدائق خضراء بالغة التنسيق والنظام بما لم نكن نراه في أي مكان آخر. وهكذا كانت علاقتي كطفل مصري في مرحلة التطلع والتفتح وحب الاستطلاع الطفولي بملك مصر هي علاقة يرسمها ويحدها هذا السور بالغ الارتفاع الذي يحتوي الملك بداخله في عزلة واستعلاء ملكي خاص ويبقيني خارجه كواحد من عامة الشعب أنا وكل أهلي ـ باعتبارنا شعب الملك ورعيته التي يملكها هي والأرض التي عليها، فالملك فاروق لي ولجيلي كما كان أبوه من قبله ـ هو شخصية خرافية من عالم آخر غير عالمنا. هو أقرب إلى الآلهة منه إلى البشر، لذلك لا يتنازل ولا يجلس معنا ويكلمنا ولا يأكل مثلنا ولا يلبس مثلنا وله ان يتحلى بأخلاق غير أخلاقنا وبثقافة غير ثقافتنا، وقد علمنا من أحاديث هيكل كيف كان كل المحيطين بالملك المديرين لشؤونه الخاصة من الأجانب، من الألبان ومن الطليان، بل كان فاروق هو أول ملك في سلسلة آبائه وأجداده يتكلم العربية!

والطريف أنه عند هجرتي من مصر بعد انهيار حلم الثورة ووصولي إلى نيويورك لأول مرة، كان أول كتاب ألحه في إحدى المكتبات بالشارع الخامس من الملك فاروق، باعتباره الملك الشهير بحب القمار والنساء، ولاحظت أن بعض الأمريكان كان يستخدم عبارة استنكار ينفي بها أنه مغامر أو زير نساء بقوله «أتظنني الملك فاروق؟».

الضابط الثائر

لم يتحدث الأستاذ هيكل بعد عن جمال عبد الناصر بالتفصيل، ولكن من حديثه عن الملك فاروق يمكننا بسهولة أن نسقط من بالنا الأسطورة التي ما زال يرددها البعض عن عدم شرعية الثورة المصرية، وإنها مجرد انقلاب قام به «العسكر» وكأن ملوك مصر كانت لهم أيه شرعية!! فما شرعية هؤلاء الأجانب الذين لم يتكلموا لغة الشعب! وهل جاء كل منهم إلى عرشه برغبة الشعب الذي سطا الملوك وأجدادهم على أراضيه؟ هل كان أحد منهم يفعل شيئاً لصالح هذا الشعب المغتصب المقهور. إن للضابط عبد الناصر شرعية تعلو ألف مرة على شرعية الملك الذي ثار ضده وأطاح به فعلى الأقل كان عبد الناصر ابن شعبه وجزءاً منه. كان له على الأقل شرعية الانتماء كما أصبحت له بعد ذلك شرعية الانحياز لأحلام فقراء مصر، برغم أخطاء وتجاوزات لا يصح انكارها.

والواقع أن المقارنة بين الملك المقامر والضابط الثائر هي مقارنة يفرضها التاريخ الذي جمعهما معاً، ففاروق هو آخر ملوك مصر الفعليين، وجمال عبد الناصر هو أول رؤساء مصر الفعليين ـ إذا ما تغاضينا عن محمد نجيب الذي جاء به الضباط الأحرار بعد نجاح حركتهم في ليلتها الأولى ـ فالذي أطاح بالملك فعلاً هو ناصر وليس نجيب، والغريب ان الملك فاروق وجمال عبد الناصر كانا في سن متقاربة، فقد ولد ناصر عام 1918، وبعده بعامين ولد فاروق، ومات فاروق عام 1965 عن خمسة وأربعين عاماً، بينما مات ناصر عام 70 عن اثنين وخمسين عاماً.. فكلاهما لم يعش كثيراً، ولكن يمكننا أن نقارن ما فعله كل منهما، فنسأل ماذا فعل فاروق لمصر؟ ولا يمنحنا التاريخ مشروعاً كبيراً واحداً يحتسب لملك مصر الأخير فقد كان جلّ اهتمام الرجل هو التنقل بين قصوره في القاهرة والاسكندرية، وبين نساء غرامياته وبين موائد القمار والرحلات الباذخة إلى أوروبا والإفراط في الطعام والبذخ، ولم تكن مصر ولا شعبها في حسابه إلا باعتبارها جزءاً من متاعه الشخصي، والنتيجة أنه لم يقم بإنجاز أي شئ له قيمة لصالح مصر. ودفع بالجيش المصري إلى حرب فلسطين دون استعداد لها، ولم يعتزل العرش بعد هزيمة جيشه ولا قام بتغيير نمط حياته المترفة الباذخة، أما الضابط الثائر فقد حارب ببسالة وجرح في حرب فلسطين، ثم رجع منها ليكون حركة الضباط الأحرار في رفض جرئ لفساد الملك وللاحتلال الإنكليزي معاً، وبينما خشي فاروق أن يقوم بأي عمل يقاوم حركة الضباط الأحرار خوفاً على حياته، وضع ناصر وجماعته حياتهم على أكفهم من أجل مبادئهم، وقاموا بحركة كان يمكن أن تنتهي بإعدامهم جميعاً، ومع ذلك فقد مارس هؤلاء الشبان درجة عالية من ضبط النفس، ورفضوا إسالة الدماء بلا مبرر. وقاموا بتوديع الملك المخلوع وداعاً عسكرياً وملكياً كاملاً، وسمحوا له بالخروج مع أفراد عائلته وثرواتهم وذهبهم إلى الخارج.

هؤلاء «العسكر» تصرفوا بشكل هو أكثر شهامة وإنسانية وعزة من تصرفات الملك وحاشيته، ولا شك أن من حارب وحوصر وجرح في جيش بلاده يملك من المصداقية والشرعية أكثر مما يملك ملك ولد فوجد نفسه وريثاً لعرش في بلد ليست هي بلده ولا بلد عائلته ولم يشعر يوماً أنه جزء من شعبها.

مما لا شك فيه أن ناصر استطاع ان يكتسب بعد ذلك مشروعية إضافية استنادا إلى كل ما فعله هو وضباط حركته من إصلاحات وإنجازات لصالح فقراء مصر وأغلبيتها الكادحة، فراحت تتوالى المشروعات الزراعية والصناعية والمدنية والهندسية واحدة وراء الاخرى، وعلى رأسها بناء السد العالي الذي اعتبره احد مراكز الأبحاث الغربية أحد أهم عشرة مشروعات هندسية في العالم في القرن العشرين. هذا بالإضافة إلى مساهمة الثورة في دفع حركات التحرر لعشرات البلدان في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية والتي اتخذت كلها من ثورة مصر نموذجاً يدفعها للمطالبة باستقلالها وقد كان.

فرق هائل إذن بين رجلين متقاربين في السن كثيراً ولدا على أرض مصر، ولد أولهما في قري «بني مرّ» الصغيرة من عائلة بسيطة، واختار أن يكون ضابطاً في جيش وطنه، ثم أن يكون ثائراً على الأوضاع الفاسدة البائسة من حوله ليقدم إلى بلده بعدها على مدى خمسة عشر عاماً كما هائلاً من الانجازات العملاقة التي وضعتها في موقع قيادي لحركة عدم الانحياز العالمية بالإضافة إلى موقعها القيادي في الأمة العربية.

بينما ولد الآخر في قصر ملكي فوجد نفسه أميراً وارثاً لعرش في دولة لم يكن والده يتكلم لغة شعبها، فعاش داخل قصوره في عزلة ورفاهية سرعان ما أدت إلى الإفراط في اللهو والبذخ وحتى في الطعام حتى مات في النهاية وهو يتناول طعامه في افراط انتحاري وهو في الخامسة والأربعين من عمره.

يقدم لنا هيكل فائدة وخدمة تاريخية كبرى.. يكشف لنا حقائق التاريخ فتسقط أمامنا الأساطير التي كانت تصور ما قبل الثورة على أنه عصر ديمقراطية زاهية جاء العسكر فقضوا عليها ولم تكن تلك سوى مظاهر مضحكة لألعاب سياسية بهلوانية يقوم فيها الملك بعزل رئيس الوزراء كل بضعة أشهر ويقوم بحل مجلس الأمة كلما غضب عليه، بينما ترك عامة الشعب من الفلاحين تحت رحمة الإقطاعيين من الباشوات الذين سطا أجدادهم على أراضي مصر ووزعوها على أنفسهم وعاشوا عالة على عرق وكدح الفلاحين البسطاء لأجيال طويلة.

استطاع هيكل أن يسقط اساطير الشرعية الملكية للملوك وافدين لم يحيطوا أنفسهم سوى بالأجانب ولم ينتموا يوماً لآلام أو أحلام المصريين. كما استطاع ـ بمجرد تواجده الشخصي وحديثه التلقائي البسيط والباهر في نفس الوقت ـ أن يسقط الشرعية عن قطاع كامل من أشباه الكتاب وأشباه الصحافيين الذين يسودون آلاف الصفحات الورقية والإلكترونية بكتابة هي في حقيقتها هجاء وشتائم وبذاءة لأنفسهم ولغيرهم، تكشف بمحتواها وبلغتها وبتبعيتها وبلهجتها الدعائية الفاقدة للموضوعية عن ضعف فكري ومهني وإنساني مخجل ومحزن حقاً.

ونحن في انتظار المزيد من الرجل الفذ الذي لم يكن مجرد «شاهد على العصر» بل كان وما يزال أحد أهم صانعي أحداثه.

* كاتب من مصر يقيم في نيويورك
fbasili@gmail.com

عباس اولاً وفتح ثانيا

نضال حمد*

■ يبدو ان الحقد الاعمى بين اطراف عديدة وليست بالبسيطة من فتح بالذات ومن حماس بشكل اقل قد يتسبب في حرب اهلية فلسطينية، طالما تجنبتها حركة حماس بالذات طوال التجربة السلطوية لفتح في الضفة والقطاع. حيث ان فتح استخدمت منتصف ونهاية التسعينات من القرن الماضي، بعض التعاميم الداخلية لحركة حماس، التي كانت الاخيرة وزعتها على اعضاء الحركة بعد قيام اجهزة امن السلطة باغتيال بعض كوادر حماس بداية حكم فتح وفسائلها في السلطة المنبعثة من رحم تنازلات اوسلو.

اذ وجدت اجهزة مخابرات السلطة المدربة لدى اجهزة المخابرات العربية والغربية والامريكية، تلك الاجهزة التي فشلت في اختبارات الصمود والمقاومة والتصدي للاحتلال في حملة السور الواقي، حيث قام بعض قادتها بالفرار او بتسليم مقراتهم الحصينة كما هي بعناصرها وعتادها الحربي لقوات الاحتلال.

حرصت تلك الاجهزة التي قمعت معارضيها من ابناء الشعب الفلسطيني على استخدام تلك التعاميم الحمساوية التي تحث اعضاء الحركة على الابتعاد عن الصراع الداخلي والفتنة وعدم الانجرار الى حرب اهلية فلسطينية. فكانت تمارس الضغط والابتزاز على حماس وغيرها من الفصائل، حيث رأت في ذلك افضل الوسائل للضغط عليهم وحشرهم في الزاوية.

اما قيادة حماس وعلى راسها الشيخ احمد ياسين واخوته الشهداء والاحياء عبد العزيز الرنتيسي وصلاح شحادة واسماعيل ابو شنب وخالد مشعل وموسى ابو مرزوق ومحمد نزال وجميع قادة حماس فقد ركزوا على موضوع تحريم الاقتتال الفلسطيني الداخلي بشكل دائم. لكن في المقابل كانت قيادة السلطة ومعها بعض قادة فتح يستغلون الحرص الحمساوي لممارسة الضغط الخانق على حركة حماس من اجل انتزاع مواقف سياسية من الحركة، هذا بعدما استطاعوا تدجين الفصائل الفلسطينية الوطنية الاخرى كلها من الجبهة الشعبية (التنظيم العريق) حتى الجبهة الديمقراطية وبقية اخوات كانَ...

رغم ذلك فان تطورات وسير الصراع على ارض الواقع بين الاحتلال الهمجي والاستعماري الاحلالي ادت فعلا الى تعرية قيادة اوسلو من آخر اوراق التوت. فقد جلبت اوسلو المزيد من الاستيطان واللاامن واللاسلام وافقرت الشعب واوجدت طبقة لصوص تحكمت وحكمت باسم منظمة التحرير الفلسطينية وفتح والبندقية والسلام والشعارات والارتباط مع الآخرين. ثم حصلت الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي كان عنوانها الاصلي والاساسي اسقاط سلطة اوسلو اولا. ثم مواجهة خطر الاحتلال الذي اصبح بفضل الهندسة العباسية لاتفاقية اوسلو امراً لا يطاق على الاطلاق. مثله مثل الجدار العازل والطرق الالتفافية والمعابر والحواجز والمستوطنات.

بعد ذلك قام الاحتلال بتغييب الرئيس عرفات بعدما كان نفذ اغتيال الشيخ ياسين والرنتيسي وابو علي مصطفى وغيرهم العشرات من قادة وكوادر الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع وحتى خارج فلسطين كما حصل مع جهاد جبريل وآخرين من حماس والجهاد وحزب الله اللبناني. وقبل ذلك كان الرئيس عرفات وافق على اعتقال احمد سعدات امين عام الجبهة الشعبية ورفاقه الذين اغتالوا المجرم زئيفي. وكذلك فؤاد الشوبكي. ووافق على اتفاقية ابعاد المحاصرين في كنيسة المهد الى اوروبا وغيرهم من الضفة الى القطاع. كما كان قبل ذلك الشهيد عبد العزيز الرنتيسي وحتى الشيخ احمد ياسين يخضعان لمضايقات وحجز منزلي واقامة اجبارية وحتى اعتقال كما حدث في عدة مناسبات مع القائد الشهيد عبد العزيز الرنتيسي الرمز الحمساوي الكبير.

نقول ان حماس تجنبت الحرب الاهلية انصافا منا للتاريخ وللحقيقة، ولكي لا نخطىء بحق فتح يجب ان نعترف ان هناك جمهورا كبيرا من فتح ايضا يقف ضد الحرب الاهلية والاقتتال الداخلي. لكن سير الامور على ارض الواقع وفي الشبكة العنكبوتية الالكترونية لا يبشر بالخير لانه يترافق ويتوافق مع الحصار العالمي الظالم المفروض على الحكومة الفلسطينية الجديدة وعلى الشعب الفلسطيني. لان المطلوب تجويع وتركيع شعب الشهداء والعطاء والفداء. وما حملة الفتحاويين المرتبطين بالوقائي وغير الوقائي من اجهزة امن سلطة اوسلو سابقا سوى دليل على مدى وعمق الخلاف والحقد بين الطرفين. فحملات الاتهام المتبادلة والتشويه والتحقير والتخوين والذم والرياء والدجل والبغض والحقد والكراهية بين الطرفين تتواصل بلا توقف. وقد سجلنا انه منذ فوز حماس بالانتخابات التشريعية اصبحت الحملة الفتحاوية الحاقدة على حماس شيئا لا يطاق ولا يمكن قبوله. لان الحملة ليست عفوية بل منظمة من قبل اطر قيادية تنظيمية وامنية في فتح وبقايا الامن والمخابرات والشرطة من عهد سلطة فتح.

فقد حرصت الحركة على الابتعاد عن المواجهة المسلحة مع أفراد الامن الوقائي بالذات الذين تمت تربيتهم تربية عصبوية، حركية في معسكرات شللية وعشائرية ومناطقية لا تعرف من فلسطين والقضية سوى العقيد المسؤول وآخر الشهر حيث «الشواقل»، سبحان الذي حول مرتبات آخر الشهر من الدولارات الامريكية الى تلك العملة.

المشكلة الاساسية موجودة في عدم قدرة 95 % من فتح (اعضاء وقيادة وكوادر) استيعاب الهزيمة لحساب حركة حماس التي انتخبها الشعب في الضفة والقطاع بعدما فقد الامل بفتح وشعاراتها وقياداتها الفاسدة التي حكمت السلطة. فجرت البلاد والعباد الى الهاوية. ومنذ هزيمة فتح والفصائل المشاركة لها في شهادة الزور، اخذت الحملة العالمية والعربية والفتحاوية على حماس تشتد وتاخذ طابعا خطيرا جدا يلعب فيه رئيس السلطة محمود عباس دورا اساسيا. فسياسة عباس المدعومة فتحاويا هي السبب الاول والثاني في المأساة الفلسطينية الحالية. وما طرح وثيقة الاسرى للاستفتاء سواء ارادت الفصائل واراد الشعب ام لا سوى جزء من المؤامرة على كل الفلسطينيين.

لان الشعب الجائع والمحاصر والذي يفتقد لابسط مقومات الحياة العادية في ظل الاحتلال والاغلاق والحصار والجوع والخوف لا يمكنه الاستفتاء على الثوابت الفلسطينية والامور المصيرية. ولا يجوز قانونيا ولا وطنيا ولا اخلاقيا لابي مازن وفتح ومن معهم ادارة الظهر للشعب الفلسطيني في الشتات وعدم سؤاله او استفتائه بسبب صعوبة ذلك كما زعم عباس.

عباس اولاً ومعه كل فتح ثانياً مسؤولون عما ستنتج عنه حالة الفوضى في فلسطين المحتلة.. وعن شق صفوف الشعب الفلسطيني ووحدته الوطنية بين الداخل والخارج. ولا يجوز له ولا لفتح او غيرها التحدث باسم الشعب الفلسطيني الذي لم يفوضهم التحدث باسمه ولا طرح اي شيء للاستفتاء بعيدا عن موافقة الجماهير التي بيدها بقاء او فناء عباس وفتح وحماس.

* كاتب من فلسطين يقيم في النرويج

عن التغلغل الاسرائيلي بالعراق

يحيى اليحياوي*

■ ليس من الضروري في شيء ان يحتكم المرء على حجج دامغة او دلائل ثبوتية قاطعة او يسائل التقارير ليتثبت من التواجد الاسرائيلي بالعراق، العسكري منه كما ذي الطبيعة المدنية كما ذي الخلفية الدينية او الايديولوجية كما ما سواها.

ولا يحتاج المرء الى بذل كبير جهد بهذا الصدد ليتاكد من ذات التواجد بالمعلن المباشر كما بالمضمر المبطن كما عبر غيرهما من صيغ ومداخل واشكال.

والواقع ان التواجد الاسرائيلي بارض العراق انما واكب الغزوة الانجلوامريكية الكبرى التي انطلقت بالعشرين من آذار (مارس) في العام 2003 وكان لاسرائيل، في ترتيبها وتشكيل البراهين على ضرورة شنها، كلمة تثبت الوثائق انها كانت القول/الفصل:

ـ فجزء كبير من نموكلاتورا القرار السياسي بامريكا مكون من يهود معروفين وصهاينة (ومتصهينين) لا يخفون ولاءهم لاسرائيل، بل ولا يتوانون في التصريح باستعدادهم للدفاع عن وجودها واعتبار هذا الاخير (الوجود اقصد) جزءا من وجودهم وامنها جزءا من منظومتهم الامنية القومية الشاملة...الم يقل الجنرال شوارتزكوف في اعقاب حرب الخليج الثانية (حزيران ـ يونيو 1991) متوجها للاسرائيليين: «اننا قمنا بالحرب من اجلكم»؟

معنى هذا ان حروب امريكا هي، والى حد بعيد، اذا لم تكن حروبا من اجل اسرائيل فهي متكاملة معها وتصب بمصلحتها مباشرة او على الآماد البعيدة.

ـ وجزء لا يستهان به من عناصر النخبة في الجيش الاسرائيلي صممت مع الامريكان خططهم العسكرية الآنية (اثناء التهيؤ للضربة) وكذلك الطويلة المدى (في انشاء قواعد دائمة بالعراق فيما بعد)، وشاركت فضلا عن كل هذا وذاك، في التحالف الانجلوامريكي في غزوه للعراق من كل جانب وسيما من جهة الشمال حيث لاسرائيل (واليهود عموما) تاريخ طويل في التنسيق مع الاكراد وترتيب مرحلة ما بعد الاحتلال.

ـ وجزء كبير من العراقيين الذين اتوا من على ظهور الدبابات الامريكية والبريطانية (ليحكموا «العراق الجديد») هم حلفاء جهارة وسرا لاسرائيل ولا يخجلون من الثناء عليها او التطلع الى مشاركتها في «مناقصات اعمار العراق» بالمباشر او تحت غطاء هذه الجهة (عربية في حالات عديدة) او تلك.

ليس ثمة من شك يذكر، من جانب آخر، ومن اليوم الاول للاحتلال ان اسرائيل انما باتت عنصرا فاعلا وفعالا في المعادلة العراقية من المتعذر حقا العثور على ميدان لا تفعل فيه بهذه الصورة كما بتلك:

ـ فهي غدت حاضرة بالاقتصاد من خلال شركاتها المباشرة («دان» لتصدير الحافلات القديمة، «روينتكس» المصدرة للمعاطف الواقية من الرصاص، «شيريونت حوسيم» المصدرة للابواب، «طيمور» المتخصصة بصناعة الاصباغ، «تامي فور» المتخصصة بتنقية المياه وغيرها) او من خلال غطاء دول عربية (خليجية تحديدا) او بتسهيلات من اصدقائها الاكراد حيث فسح المجال واسعا لرجال اعمال اسرائيليين وجنرالات متقاعدين ويهود من كل بقاع العالم (ما يناهز الـ 100 شركة) لشراء الاراضي والمصانع والمزارع وما سواها.

ـ وهي غدت عنصرا فاعلا في معادلة الانشطار الطائفي التي يغذيها معها حلفاؤها الاكراد المتطلعون للاستقلال والذين «ينسقون» مع اسرائيل سرا وعلانية كيفية وسبل اعلان الانفصال عن الدولة المركزية عندما تسنح الظروف وياتي السياق المناسب.

ـ وهي باتت حاضرة بالمخابرات («الجديدة») كما بدواوين الوزارات متلبسة او بالمباشر (على اعتبار ان بكل الوزارات الجديدة مستشارين لا كلمة للوزير فوق كلمتهم ومن المؤكد ان يكون ضمنهم يهود واسرائيليون)... بل ان عناصرها حققوا ولا يزالوا يحققون مع سجناء من المقاومة افصح العديد ممن افرج عنهم ان «بعض المحققين يهود من سحناتهم، بل وبعضهم يرتدي قبعتهم الشهيرة» دونما تحرج يذكر.

ـ وهي اضحت عنصرا محسوسا بالمشهد العراقي اليومي على اعتبار انها طرف في التفخيخات والاغتيالات (سيما للعلماء) وتاجيج النعرات عبر هذه الوسيلة او تلك. وقد اكد الكاتب الصحافي المعروف سيمون هيرش «ان الاسرائيليين متواجدون بقوة بالعراق واختصاصهم تفخيخ السيارات والتعذيب الجنسي وقطع الرؤوس» وتلغيم الشوارع والقتل والاختطاف وارهاب السكان بهذه الجهة من العراق او تلك وخصوصا بتلك التي تشتد المقاومة من بين ظهراني ابنائها.

لم يات التغلغل الاسرائيلي هذا من فراغ، بل هو نتاج لمشروع قديم لطالما منت اسرائيل (واليهود عموما) نفسها ببلوغه وتجسيد توجهاته:

ـ فالمنظومة الايديولوجية الصهيونية (ذات الخلفية الدينية الصارخة) انما تعتبر العراق جزءا من «ارض اسرائيل الكاملة» لن يطول بها الزمن (تقول فتاوى حاخاماتها الكبار) حتى تحققها على انقاض اهلها وذويها.

يقول نص التلمود بهذا الشأن: «اقيموا مذبحة لابنائهم، اكنسوها بمكنسة الدمار هذه بابل الآثمة وآشور ارض الخطيئة... خربوها واجعلوها لا تسكنها الا الغثران وهدموها حتى لا يجد العربي عمودا يربط اليه ناقته».

ـ واسرائيل راهنت، منذ ايام نشأتها الاولى، على مبدأ التفوق الاستراتيجي (فاكتسبت قوة التفوق النووي بالمنطقة قبل غيرها) وراهنت ليس فقط على تفكيك المنطقة العربية وتحويلها الى دويلات مجهرية، بل وبالاساس على الحؤول دون استنبات سبل ومقومات التنمية العلمية والتكنولوجية (عبر اغتيال العلماء او استجلابهم ترغيبا وترهيبا) من بين ظهرانيها جملة وتفصيلا (والعراق كان مصدر تخوفها مبكرا).

ـ واسرائيل راهنت ولا تزال على تجريد العراق من كل مقوماته التاريخية الكبرى، اذ عمدت منذ اليوم الاول للاحتلال، الى سرقة اثمن الوثائق والمخطوطات بما فيها المكتبة المتواجدة بالمخابرات العراقية وذات الطبيعة السرية والتي تضم نسخا نادرة من التوراة (مكتوبة على جلد غزال) ناهيك عن التحف والكتب النادرة وكل ما زخرت به حضارة بلاد الرافدين لقرون عدة.

وعلى الرغم من كل هذا، فان اسرائيل تعتبر ان الذي انجزته لحد الساعة لا يعدو كونه تحقيقا لنصف الطريق الاول على ان النصف الثاني انما سيتسنى له الاكتمال عندما يتم لها التحكم المباشر في مفاصل العراق وتتواطأ الحكومات والاقلام العربية على عدم اعتبار التعامل مع اسرائيل او الاعتراف بوجودها بارض العراق... «جريمة» ما بعدها جريمة.

* كاتب من المغرب

عندما يصدق بوش وتكذب صفا وايمان!

جواد البشيتي*

■ الشيء بالشيء يُذكَر، فالجريمة الوحشية التي ارتكبها عسكريون امري